ذكرى مولد الرسول

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ محمود شلتوت

عضو جماعة كبار العلماء وعضو مجمع فؤاد الأول

في شهر ربيع الأول من كل عام يقيم المسلمون حفلات الذكرى لميلاد النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، فينصبون السرادقات ، ويرفعون الأعلام ، ويلقون الخطب ، ويذيعون الأحاديث ، ويكتبون الفصول ، يشرحون للناس فيها مخطبون ويذيعون ويكتبون سيرة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم أو ناحية من نواحي سيرته ، ويذكرون تشريعه وأحكامه وطريقته في التأديب وإنهاض النفوس وتهذيب الأخلاق . يذكرون أطواره التي مر بها في حياته قبل البعثة وهو طفل رضيع في بادية بني سعد ، وهو غلام حدث يرعى الغنم بمكة ، وهو شاب قوي جلد يسافر ويتجر ، ويحضر حرب الفجار وحلف الفضول ، ثم يذكرون دعوته وكيف بدأت سرية ثم كانت جهرية ، ويذكرون ما ناله من أذى قومه واضطهادهم له ، وتضييقهم عليه حتى أخرجوه من داره وأمواله إلى المدينة ، فكانت الهجرة ، وكانت الحروب ، إلى أن نزل قوله تعالى بعد ثلاث وعشرين سنة من مبعثه « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا »

* * *

على هذا النحو يحتفل المسلمون بذكرى ميلاد الرسول في يوم أو أيام ويقولون إنها ذكرى « وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين » . ولقد كان المسلمون في عصورهم الأولى لا يعرفون احتفالا خاصا يقيمونه في مثل هذه الأيام بقصد إحياء ذكرى الرسول صلى الله عليه وسلم لأنهم كانوا يرون أن عظمته ليست من جنس هذه العظمات التي يألفها الناس في أفذاذهم ورجالهم ، والتي يخشى عليها من الضياع والتلاشي في بطون التاريخ فيحتاج بقاؤها في أذهان الناس إلى ما يذكرهم بها في كل عام . كانوا يؤمنون أن عظمته خالدة ، تظل دائما قارة في النفوس ، ماثلة في القلوب ، ممتزجة بالدماء ، مؤاخية للعقيدة ، تظهر في أقوالهم إذا نطقوا ، وفي حركاتهم إذا تحركوا ، وسكونهم إذا سكنوا . تظهر في جميع شئونهم الفردية والاجتماعية ، السرية والعلنية ، الدنيوية والأخروية ، إلى يوم البعث والجزاء ، بل وفي النعيم الباقي الذي لا يفنى ولا يزول ؛ فهي عظمة قد رسمت لهم باطن الحياة وظاهرها ، وحدودها ودوائرها ، لم تقف عند ناحية من نواحي الحياة ، بل لم تقف عند حدود هذه الحياة الفانية فشملت جميع نواحي الحياة ، وامتدت إلى الحياة الآخرة فكشفت عن حجب فيها وصورت ما يكون فيها للمحسن من نعيم ، وما يكون فيها للمسيء من شقاء

لم تكن عظمته بانتصار في معركة ، ولا برأي في علم ، ولا بنظرية في أرض أو سماء ، وإنما كانت عظمته عامة شاملة

بهذا آمن المسلمون في عصورهم الأولى يوم كان الإيمان قويا في النفوس ، تشتعل جذوته فتلتهب الجوارح وتبذل الأنفس ، ويضحى بالدماء في سبيل ترسم خطى تلك العظمة والجد في معرفتها وتبينها من مصادرها ونشرها على العالم مهذبة نقية ، كي تحيا بها النفوس وتطمئن إليها القلوب ؛ وبذلك كانت جميع أيامهم ، وجميع أوقاتهم ذكرى عملية لهذه العظمة

ذكرى عملية يتمثلون فيها مبادئه وأحكامه ، وإرشاداته الحكيمة ، ويسيرون على نهجها فكانت حياتهم مثالا صادقا ، ومرآة صافية ترى منها عظمة الرسول لمن أراد من غيرهم معرفة عظمة الرسول

كانوا يرون أن النبي صلى الله عليه وسلم وقد كرم الله قدره ورفع ذكره أرفع قدرا وأعلى شأنا من أن يكرم كما يكرم آحاد الناس بخطبة تلقى ، أو حديث يذاع ، أو فصل يكتب . كانوا يرون أن الله قد كرمه وليس بعد تكريم الله تكريم : خلد اسمه

فى كتابه الخالد ؛ فذكره باسمه الصريح ، وذكره بوصف الرسالة ، وذكره بوصف العبودية لله الواحد ، وذكره بعظمة خلقه ، وذكره برحمته للمؤمنين ، وبرحمته للناس أجمعين ، وذكره بأنه المزكى للنفوس المعلم للكتاب والحكمة ؛ وذكره بكل هذا كما ذكره بأنه شهيد على أمته ، وبأنه صاحب المقام المحمود . ثم جعل محبته من محبته ، وطاعته من طاعته ، وبيعته من بيعته

لم يقف التكريم الإلهى لمحمد صلى الله عليه وسلم عند هذا الحد ، بل جعل له ذكرا فى الأولين إذ كتبه فى التوراة والإنجيل ، وجعل له ذكرا فى الآخرين إذ قرن بينه وبين اسمه الكريم فى كلمة التوحيد التى يكون بها المرء مسلما ، والتى هى الحد الفاصل بين الإيمان والكفر ، وإذ جعل المناداة باسمه جزءا من الأذان الذى يقرر فى كل يوم خمس مرات بصوت مسموع إيذانا بالصلوات المفروضة رجما للمسلمين على عبادة الله . لم يكن بعد هذا كله ما يلتمس أن يكون تكريما لمحمد . ومتى كانت هذه العظمة تنسى حتى يذكر بها ؟ ومتى كان هذا التكريم يخفى حتى نعمل على إظهاره ؟

• • •

آمن الأوائل بهذا كله فآمنوا بأن تمجيد رسولهم وتكريمه إنما يكون من طريق اتباعه وإحياء سنته ، والتحلى بأخلاقه ، وإقامة شرعه ودينه . آمنوا بهذا وعلموا أن الإيمان الحق يثمر المحبة الصادقة ، والمحبة الصادقة حقوق وعليها تبعات ، فمن حقوقها المتابعة لمن نحب ، والرضا لما يرضيه ، والغضب لما يغضبه . ومن تبعاتها تحمل المشاق والتضحية بالنفس فى سبيل رضا المحبوب «قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره »

ظل المسلمون كذلك حتى خف ميزان الإيمان من قلوبهم وانطفأ عنهم نور تلك العظمة وأقفرت بصائرهم من أسرارها ولم يبق لهم منها إلا صور مرسومة بحروف فى الصحف والكتب يرجعون إليها كلما عاودتهم ذكرى تلك العظمة ؛ وكلما تذكروها بشهر ربيع ، فوضعوها فى مستوى العظمات الأخرى وجاروا الناس فى تكريم عظمائهم فكرموا بأساليبهم . كرموه بالأناشيد ، بالأزجال ، بالأنغام ، وتفننوا فى المحاكاة حتى ساووا عظمة محمد فى أسلوب روائى قصصى وقالوا : قصة المولد الشريف . وما كان لعظمة محمد أن تكون قصة وهى الحقيقة الخالدة . ولكن هكذا ابتدع هذا الأسلوب فى تكريم محمد كأثر من آثار الضعف حينما ابتلى المسلمون بالقول دون العمل ، وحينما انقطعت الصلة العملية بينهم وبين شريعته صلى الله عليه وسلم

ابتدع هذا الأسلوب من التكريم بعد أن لم يكن ، فهل بحث الناس عن سبب ابتداعه ؟ وهل تساءلوا عن السر فى أنه لم يكن فى العصور الماضية ، عصور القوة والإيمان ، ثم كان فى عصورهم ؟ هل انصرفوا إلى هذا الجانب الذى كان يرجى أن يصرفوا منه أسباب الضعف الذى انتاب المسلمين وأن يعملوا على تلافيها وإعادة الإسلام إلى مجده وقوته ؟ كلا ولكنهم انصرفوا إلى البحث فى أنه بدعة أو ليس بدعة ؟ وإذا كان بدعة فهل هى بدعة حسنة أو بدعة غير حسنة ؟ وهكذا اختلفت مذاهبهم وتعددت آراؤهم وظلوا إلى يومنا هذا بين محبذ ومنكر ، شأنهم فى كل شئ تناولوه بروح الجدل الذى صرفهم عن العمل . وما ابتليت أمة فى حياتها بشر من كثرة القول وقلة العمل . فابتلى المسلمون بالجدل فى كل شئ ، فصرفهم عن العمل بقدر ما جادلوا : جادلوا فى العقائد ، جادلوا فى الأحكام ، جادلوا فيما ليس من العقائد والأحكام ، جادلوا فى الكلمات والألفاظ ، جادلوا حتى فى القواعد التى وضعوها للجدل ! وهكذا صار الجدل شغلهم الشاغل فتلهوا به عن فهم الإسلام ، وعظمة الإسلام ، وسر دعوة الإسلام . تلهوا به عن إدراك مقومات الحياة ، فوقعت كل الشعوب الإسلامية فى قبضة المستعمرين وتحت رايتهم . وما من شعب إسلامى اليوم إلا وتسمع مر شكواه وصرخة أنينه

• • •

كان جديرا بالمسلمين أن يعملوا جاهدين على دوام التأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتزام رسالته التى لم تترك سبيلا للسعادة إلا شرعته ودعت إليه ، ولا سبيلا للشقاء إلا منعته ونفرت منه . أصلحت العقيدة ، وكرمت بذلك بمثل